السيرة النبوية

عرض وقائع وتحليل أحداث

(دروس وعبر)

طبعة جديدة مصححة ومنقحة ومخرجة الأحاديث
ومزودة بخرائط ومصورات ملونة

تأليف
الدكتور علي محمد محمد الصلابي

الجزء الأول

دار ابن كثير
دمشق - بيروت

الفصل الأوَّل
أهمُّ الأحداث التَّاريخيَّة من قبل البعثة حتَّى نزول الوحي

المبحث الأوَّل
الحضارات السَّائدة قبل البعثة ودياناتها

أوَّلاً: الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة[١]:

كانت الإمبراطوريَّة الرُّومانيَّة الشَّرقيَّة تُعرف بالإمبراطوريَّة البيزنطيَّة، وكانت تحكم هذه البلاد: اليونان، والبلقان، وآسية، وسورية، وفلسطين، وحوض البحر المتوسط بأسره، ومصر، وكلَّ إفريقية الشَّمالية، وكانت عاصمتها القسطنطينية، وكانت دولةً ظالمةً، مارست الظُّلم، والجور، والتَّعسُّف على الشُّعوب التي حكمتها، وضاعفت عليها الضَّرائب، وكثرت الاضطرابات، والثَّورات، وكانت حياتهم العامَّة قائمةً على كلِّ أنواع اللَّهو، واللَّعب، والطَّرب، والتَّرف.

أمَّا مصر؛ فكانت عرضةً للاضطهاد الدِّينيِّ، والاستبداد السِّياسيِّ، واتَّخذها البيزنطيُّون شاةً حلوباً، يحسنون حلبها، ويسيئون علفها.

وأمَّا سورية؛ فقد كثرت فيهم المظالم، والرَّقيق، ولا يعتمدون في قيادة الشَّعب إلا على القوَّة، والقهر الشَّديد، وأصبحت مطيَّة المطامع الرُّومانيَّة، وكان الحكم حكم الغرباء، الذي لا يعتمد إلا على القوَّة، ولا يشعر بأيِّ عطفٍ على

(١) ينظر الشكل (١) في الصفحة (٧٣٧).

الشَّعب المحكوم ، وكثيراً ما كان السُّوريون يبيعون أبناءهم ؛ ليوفُّوا ما كان عليهم من ديون[١] .

كان المجتمع الرُّومانيُّ مليئاً بالتناقض ، والاضطراب ، وقد جاء تصويره في كتاب (الحضارة ماضيها وحاضرها) كالآتي :

«كان هناك تناقضٌ هائلٌ في الحياة الاجتماعية للبيزنطيين ، فقد رسخت النَّزعة الدِّينيَّة في أذهانهم ، وَعَمَّتِ الرَّهبانيَّة ، وشاعت في طول البلاد وعرضها ، وأصبح الرَّجل العاديُّ في البلاد يتدخَّل في الأبحاث الدِّينيَّة العميقة ، والجدل البيزنطي ، ويتشاغل بها ، كما طبعت الحياة العاديَّة العامَّة بطابع المذهب الباطنيِّ ، ولكن نرى هؤلاء - في جانب آخر - حريصين أشدَّ الحرص على كلِّ نوع من أنواع اللَّهو ، واللعب ، والطَّرب ، والتَّرف ، فقد كانت هناك ميادينُ رياضيَّةٌ واسعةٌ تتَّسع لجلوس ثمانين ألفَ شخصٍ ، يتفرَّجون فيها على مصارعاتٍ بين الرِّجال والرِّجال أحياناً ، وبين الرِّجال والسِّباع أحياناً أخرى ، وكانوا يقسمون الجماهير في لونين : لون أزرق ، ولون أخضر ، لقد كانوا يحبُّون الجمال ، ويعشقون العنف ، والهمجيَّة ، وكانت ألعابُهم دمويةً ضاريةً أكثر الأحيان ، وكانت عقوبتُهم فظيعةً تقشعر منها الجلود ، وكانت حياة سادتهم وكبرائهم عبارةً عن المجون ، والتَّرف ، والمؤامرات ، والمجاملات الزَّائدة ، والقبائح ، والعادات السَّيئة»[٢] .

ثانياً : الإمبراطوريَّة الفارسيَّة :

كانت الإمبراطوريَّة الفارسيَّة تُعرف بالدَّولة الفارسيَّة ، أو الكِسرويَّة ، وهي أكبر ، وأعظمُ من الإمبراطورية الرُّومانية الشَّرقيَّة ، وقد كثرت فيها الدِّيانات المنحرفة ؛ كالزرادشتية ، والمانِيَّة التي أسسها ماني في أوائل القرن الثَّالث الميلادي ، ثمَّ ظهرت المزدكيَّة في أوائل القرن الخامس الميلادي الَّتي دعت إلى الإباحيَّة في كلِّ شيءٍ ، ممَّا أدَّى إلى انتشار ثورات الفلاحين ، وتزايد النَّهابين

---

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣١ .
(٢) المصدر السَّابق ، ص ٣١ .

للقصور ، فكانوا يقبضون ، أو يأسرون النِّساء ، ويستولون على الأملاك ، والعقارات ، فأصبحت الأرض ، والمزارع والدُّور كأن لم تسكن من قبل .

وكان ملوكهم يحكمون بالوراثة ويضعون أنفسهم فوق بني آدم؛ لأنَّهم يعتبرون أنفسهم من نسل الآلهة ، وأصبحت موارد البلاد ملكاً لهؤلاء الملوك ، يتصرَّفون فيها ببذخ لا يُتصوَّر ، ويعيشون عيش البهائم ، حتَّى ترك كثير من المزارعين أعمالهم ، أو دخلوا الأديرة ، والمعابد فراراً من الضَّرائب ، والخدمة العسكريَّة ، وكانوا وقوداً حقيراً في حروبٍ طاحنةٍ مدمِّرةٍ ، قامت في فتراتٍ من التَّاريخ دامت سنين طوالاً بين الفرس والرُّوم ، لا مصلحة للشُّعوب فيها إلا تنفيذ نزوات ، ورغبات الملوك(١) .

ثالثاً : الهند :

اتَّفقت كلمة المؤرِّخين على أنَّ أحطَّ أدوارها ديانةً ، وخُلقاً ، واجتماعاً ، وسياسةً ذلك العهد الَّذي يبتدئ من مستهلِّ القرن السَّادس الميلادي ، فانتشرت الخلاعة حتَّى في المعابد؛ لأنَّها أصبحت مقدسةً!! وكانت المرأة لا قيمة لها ، ولا عصمة ، وانتشرت عادة إحراق المرأة المتوفَّى زوجها ، وامتازت الهند عن أقطار العالم بالتَّفاوت الفاحش بين طبقات الشَّعب ، وكان ذلك تابعاً لقانونٍ مدنيٍّ سياسيٍّ دينيٍّ ، وضعه المشرِّعون الهنديُّون الَّذين كانت لهم صفةٌ دينيةٌ ، وأصبح هو القانون العامَّ في المجتمع ، ودستور حياتهم ، وكانت الهند في حالة فوضى ، وتمزُّقٍ ، انتشرت فيها الإمارات التي اندلعت بينها الحروب الطَّاحنة ، وكانت بعيدة عن أحداث عالمها في عزلةٍ واضحةٍ ، يسيطر عليها التزمُّت ، والتَّطرُّف في العادات ، والتقاليد ، والتفاوت الطَّبقيُّ ، والتَّعصب الدَّمويُّ ، والسُّلاليُّ .

وقد تحدَّث مؤرخٌ هندوكيٌّ ـ أستاذ التارخ في إحدى جامعات الهند ـ عن عصرٍ سابق لدخول الإسلام في الهند ، فقال : «كان أهل الهند منقطعين عن الدُّنيا ، منطوين على أنفسهم ، لا خبرة عندهم بالأوضاع العالميَّة ، وهذا الجهل أضعف موقفهم ، فنشأ فيهم الجمود ، وعمَّت فيهم أمارات الانحطاط ، والتَّدهور . كان

(١) انظر : السِّيرة النبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٢ ، ٣٣ .

الأدب في هذه الفترة بلا روح ، وهكذا كان الشأن في الفنِّ المعماريِّ ، والتَّصوير ، والفنون الجميلة الأخرى»[(١)] .

«وكان المجتمع الهنديُّ راكداً جامداً ، كان هناك تفاوتٌ عظيم بين الطَّبقات ، وتمييز معيبٌ بين أسرةٍ ، وأسرةٍ ، وكانوا لا يسمحون بزواج الأيامى ، ويشدِّدون على أنفسهم في أمور الطَّعام ، والشراب ، أمَّا المنبوذون فكانوا يعيشون ـ مضطرين ـ خارج بلدهم ، ومدينتهم»[(٢)] .

كان تقسيم سكان الهند إلى أربع طبقات :

١ ـ طبقة الكهنة ، ورجال الدِّين ، وهم «البراهمة» .

٢ ـ رجال الحرب ، والجنديَّة ، وهم «شترى» .

٣ ـ رجال الفلاحة ، والتجارة ، وهم «ويش» .

٤ ـ رجال الخدمة ، وهم «شودر» وهم أحطُّ الطبقات ؛ فقد خلقهم خالق الكون ـ كما يعتقدون ـ من أرجله ، وليس لهم إلا خدمة هذه الطَّبقات الثَّلاث ، وإراحتها .

وقد منح هذا القانون البراهمة مركزاً ، ومكانةً لا يشاركهم فيها أحدٌ ؛ فالبرهميُّ رجلٌ مغفورٌ له ، ولو أباد العوالم الثلاثة بذنوبه ، وأعماله ، ولا يجوز فرض جبايةٍ عليه ، ولا يعاقب بالقتل في حالٍ من الأحوال . أما «شودر» فليس لهم أن يقتنوا مالاً ، أو يدَّخروا كنزاً ، أو يجالسوا برهمياً ، أو يمسُّوه بيدهم ، أو يتعلَّموا الكتب المقدسة[(٣)] .

رابعاً : أحوال العالم الدِّينيَّة قبل البعثة المحمَّدية :

كانت الإنسانية قبل بزوغ فجر الإسلام العظيم ، تعيش مرحلةً من أحطِّ مراحل التَّاريخ البشريِّ في شؤونها الدِّينيَّة ، والاقتصاديَّة ، والسِّياسيَّة ، والاجتماعيَّة ، وتعاني فوضى عامَّةً في جميع شؤون حياتها ، وهيمن المنهج الجاهليُّ على

(١) انظر : السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٨ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص ٣٩ .

(٣) راجع القانون المدني الاجتماعي المسمَّى (منوشاسنز) الأبواب (١ ـ ٢ ـ ٨ ـ ٩ ـ ١٠) ، نقلاً عن السِّيرة النَّبويَّة ، للنَّدويِّ ، ص ٣٨ .